

طه حسين : الوحدة في التنوع

أم هو هذا الجهد الدؤوب الذي ظل يبذله هذا المثقف الخارج من بيئة محافظة مرفقة نبي نعلقها بقيم الماضي ، سعياً للانتقال بنفسه وبمواطنيه من المفاهيم الرابطة والخرافات والادهام وضيق الأفق إلى الحياة المستنيرة داعياً بكل قواه للانفتاح على حضارات المجتمعات المتقدمة وللتعرف إلى طرق جديدة في العيش وفي التفكير وفي العمل . أم هو هذا الصراع المستمر الذي خاضه بعناد وثبات هذا المواطن المناضل ، انطلاقاً من الميدان الفكري والثقافي ضد القوى التي كانت تعمل على عرقلة تقدم مجتمعه ، فوضع كل ثقل علمه وثقافته والمكانة الاجتماعية التي اتاحها له في معركة تحرير أمته من أغلال الجهود والخمول وفي فضح وجوه التخلف والفقر والمهانة التي كانت تعاني منها .

هذه الجوانب وعشرات من الجوانب الأخرى في حياة طه حسين وفي فكره هي التي بوانه هذه المكانة التي لم يتح لأديب عربي أن يلفها في قلوب القراء وعقولهم ، لا في مصر وحدها ، وإنما في كل بلدان العالم العربي ، بل وفي بعض البلدان الأجنبية المتقدمة .

هذا التعدد المدهش في الجوانب التي أطل منها طه حسين على الناس ، صحفياً وكاتباً ونادياً أديباً ، واستاذاً جامعياً ورائداً في البحث الأدبي المنهجي وفي التخطيط التربوي ، وفي التعريف بالآداب الأجنبية القديمة والآداب العالمية الحديثة ، ومشاركاً في أكثر المعارك الاجتماعية والفكرية والسياسية التي هزت مجتمعه ، وهذا التنوع في المسالك التي طرقها هذا الأديب بقلمه ومسلكه وهذا الزخم الدافق من صنوف التحرك والنفاذ ، كل ذلك يعطي صورة هذا الإنسان الفذ غنى في الألوان ، ويضفي على صوته حرارة في الإيصال ، والتأثير والفعل لم يتأني لأي أديب عربي آخر في عصرنا الحديث .

فلا عجب أن رأى فيه القراء العرب إحدى الصور الصادقة للعصر الذي عاشه وتطور مجتمعه المصري والإسلامي في سعيه للانتقال من الحياة التقليدية إلى الحياة الحديثة .

ولا عجب أن وجدت أجيال متلاحقة من القراء العرب في طه حسين وعمله الفكري اختصاراً معاشاً ، تم على صعيد الفرد ، خلال معاناة كبيرة ، لتجربة الأمة كلها في تلمسها طريقها للخروج من حياة التخلف . ولا يسعنا إلا أن نعيد ، هنا ، بعضاً مما قاله كامل زهيري في هذا المعنى: « وطه حسين ، لهذا السبب ، فريد بين كتاب عصره ، لأنه جمع النقايس التي تمر بالامة نفسها ولأنه عاشها ، وذائق وعانى من الدراسة التقليدية الضيقة في الكتاب وصحن الأزهر ، كما تلمس الجو « غير الفعلي » في القرية ، بأعلى الصعيد ، وفي أزقة القاهرة ، ثم تقلبت حياته ، فتلوق ما يسمى بالنهج الفكري وتلوق رفاهية اللوق المصقول ،

قليل من الأدباء والمفكرين الذين يصمدون لفعل الزمن العامل هدماً وتفنيماً في نفوس القراء ، مثلما صمد طه حسين . فإن غالبية الكتاب والشعراء الذين ملأوا مخيلتنا في بدايات تكوين حساسيتنا وأذواقنا الأدبية فاحتلوا فيها المكان الذي نرده لإبطال صيانا أو طفولتنا ، لا يلبثون ، عندما نعود إلى آثارهم بعد أن تتطور مفاهيمنا وتنضج نجاتنا وتغير النسب بين أحجام الناس والأشياء في نفوسنا ، لا يلبثون أن يبهت بريق صورهم وتخفت اصداق أقوالهم في وجداننا وفي مهاري قلوبنا .

أما طه حسين فيشذ عن القاعدة . بل لعله الأديب الوحيد الذي لا تزيد الوحدة إلى آثاره إلا رسوخاً وامتداداً في نفس قارئه وإثارة للإكبار المتجدد .

ومن تهيأ له مثلما تهيأ لي في الأسابيع الأخيرة ، تحضيراً لهذا البحث ، أن يلم بمعظم آثار طه حسين ، في جولة واحدة ، لا يملك نفسه من الانسياق فيما يشبه الدوار أمام هذا العالم المتكامل مسن الأفكار والرؤى والأحاسيس والذكريات والتجارب النفسية التي لا حد لشمول آفاقها وعمق أغوارها وجذتها وغناها وصدق النبرات الإنسانية التي لا تنقطع عن الرنين داخلها . وقد يحسار الباحث في أي الجوانب من حياة طه حسين وآثاره أحفل بالمعجب .

أهو هذا المثل للشجاعة والعناد البطولي الذي ضربه هذا الإنسان عندما استطاع الانتصار على القدر الذي حرمه من نعمة البصر ، وكان يهيئه لصير ينتظر أمثاله من المكفوفين ، صورته له والده الشيخ حين قال له في ساعة غضب « اني اقسام لاسكنك في القرية ولاقطنك عسّن الأزهر ولاجعلنك فقيها تقرأ القرآن في المآثم والبيوت » ، فارتفع بمصيره إلى حيث أراد وإلى حيث استطاع أن يعطي من قلبه وعقله وبصيرته نوراً لا ينضب إلا لا يحصى من المبصرين .

أم هو هذا الزاد الهائل الفنى من ألوان الثقافة وفنون المعرفة الذي غرغ منه وأطمع الآخرين هذا الذي ما انفك يجمع في ذاته ، حتى آخر يوم من عمره الطويل ، صفتي العلم والتلمذ يتابع التحصيل ويلاحق كل التيارات الجديدة في أدب قومه وفي الآداب العالمية ، بقدر ما يفوس في أغوار التراث الفكري الإسلامي والعالمي ليخرج من هذا المزيج البالغ الخصوبة من معارف أمته والامم الأخرى ، في ماضيها وحاضرها ، بروائع من كل فن ولون .

وانتقل من كفر الطماعين (قريبا من الأزهر) الى السوربون ، فاذا به وهو الحريص على الا تفصل خطاه لا يفضل ولا يتعثر ، لانه امسك بزمام عقله في كل هذه الرحلة الشاقة التي تصور رحلة الامة نفسها .

« بل ونستطيع ان ندعي ان طه حسين هو اصدق صورة لهذا العصر الذي انقضى بين الحربين العالميتين ، لانه اخذ من كل نفاض هذا العصر بطرف . وهو عصر ارتطمت فيه تيارات فكرية ووجدانية عارسة وكانت مصر تبحث فيه عن كيائها وكانت تلوح امامها مسالك عدة وطرق متفرقة . وكان طبيعيا ، بل وحتما ، والامة تولد وتنقب عن اصلها ، وفي جذور تاريخها الطويل المتراكم ان تدور المناقشات ، المخصصة والمتوجسة والحامية اللطيس حول الشرق والغرب، والقبة والطربوش، والحجاب والسفور ، والقومية المصرية والقومية العربية وفكرة الامة في نظر الدين وفي نظر القومية ، والفصحى والعامية ، وقدر الحضارة العربية بالنسبة لحضارات الانسانية ، وعلاوة هذه الحضارة باوريسا وحوض البحر الابيض وبتراث الاغريق والرومان ، وطرق التعليم ووسائل الحكم ، ودور الازهر ومهمة الجامعة المصرية ، واثر التربية الدينية ومهمة التعليم الزمني او المدني وغير ذلك .

« وقد كابد طه حسين كل ذلك بنفسه وجرب هذه المسالك المتعددة . ومن هنا كان عناؤه تجريبيا ، لم يتوفر لكثير من معاصره على هذه الصورة التي تجمع بين الازهر والسوربون .

« فان طه حسين لم يستقر على نظرية ممددة سلفا ، او نظرية جاهزة كفته مؤونة البحث ، انما عانى بنفسه مهمة البحث عن كل ما يعتقد انه الصواب في كل هذه القضايا التي كانت تشغل اذهان ابناء مجتمعه .

ولهذا فان احب صفات طه حسين الى قرانه هي الصداقة (1) . ولكن تنوع الوجوه والنوافذ التي يطل منها طه حسين وتعدد المسالك التي طرقها خلال سيره الطويل في خدمة الثقافة المصرية والعربية والانسانية لا يستطيعان اخفاء نوع من الاستمرار والتماسك في شخصيته وضرب من الوحدة في سير فكره وادبه وتحركه الاجتماعي .

وهذه الوحدة نلمسها على اصعدة عدة :

اننا نلمسها ، اولا ، في استمرار دوران ذهنه وخلقه الفكري حول بعض الميادين المحدودة العدد التي كانت تشكل ما يشبه الشرايين الكبرى لتحركة الفكري والتي كانت تصب في مجاريها الواسعة القنوات الفرعية المتحدرة مما لا يحصى من الواضيع واللففات الى آفاق بالغة التشعب .

واننا نلمسها ، ثانيا في الاتجاه العام لخطي السير في تحركه في الميدان الادبي والفكري من جهة ولتحركه في الميدان الاجتماعي والسياسي من جهة اخرى ، وفي ما يبدو من تلازم وتقارب بين هذين الخطين ومن توجه دائم مستمر نحو مرامي واهداف اجتماعية صريحة تارة وخفية طورا آخر ومرتبطة دائما برؤيا واحدة لاوضاع مجتمعه وبارادة غير معلنة لتغيير البالي والضرار من هذه الاوضاع .

ونلمسها ثالثا في المنهج الواحد الذي كان يتبعه في معالجة مختلف القضايا الكبرى التي تعرض لها .

ونلمسها رابعا في اسلوبه المميز في صياغة افكاره . ونلمسها اخيرا في القاعدة الركائزية التي ينطلق منها ادب طه حسين وفكره ونعني بذلك مجموعة المؤثرات التي عملت تكوين هذه المظاهر الفوقية التي تميز طه حسين الانسان والاديب والفكر . اننا سنستعرض ، ما امكنا ، هذه الاصعدة المختلفة التي نرى ان شخصية طه حسين تتجلى فيها على اكثر ما يكون الانسجام والتجانس والتماسك والتفرد .

(1) كامل زهيري : « طه حسين رجل ومنهج » - الهلال - عدد خاص بطه حسين . اول فبراير ١٩٦٦ .

ففيما خص الوجه الاول من وجوه ما سميناه الوحدة والانسجام والاستمرار في شخصية طه حسين ، ينبغي ان نلاحظ ان الفسزارة الكبيرة في انتاج كاتبنا خلال ما يزيد على النصف قرن وتنوع الواضيع الصغيرة والكبيرة التي عالجه ، لا يمنعاننا من ان نرى عنده نوعا من نقاط الاستقطاب الثابتة التي تتأرجح بينها اهتماماته الادبية والفكرية فلا يتزلا الواحدة حتى يعود اليها بعد زمن، مرة او مرات . فكانما به عندما يتوجه الى احد المواضيع ينصرف اليه بكل قلبه وجوارحه ويندمج في جوه ويتوحد فيه حتى لا يستطيع عنه الانسلاخ النهائي بل تبقى وشائج واوتار خفية تشده اليه دوما .

ولننظر قليلا الى بعض الامثلة عن هذا التأرجح المستمر حول بعض المواقع الاستقطابية ونقاط الانجذاب في ادب طه حسين .

فهناك اولا ابو العلاء المعري ، هذا الشاعر والفيلسوف الذي ظل يتردد في خاطر طه حسين وعلى قلمه .

ففي سنة ١٩١٤ قدم طه حسين رسالته لنيل الدكتوراه من الجامعة المصرية تحت اسم « ذكرى ابي العلاء »

وفي ١٩٢٥ يصدر دراسته « مع ابي العلاء في سجنه » . وفي ١٩٤٤ قدم « صوت ابي العلاء » وهو عبارة عن شرح للزوميات ابي العلاء .

وهناك ثانيا دراساته لتاريخ الفكر اليوناني والروماني القديم ، بدأت بنشره فيما بين عام ١٩١٩ و ١٩٢٤ في صحيفة الجامعة المصرية فسمما من معاضراته في الجامعة المصرية تحت اسم دروس التاريخ القديم في الجامعة المصرية .

ثم اصدر عام ١٩٢١ ترجمته لكتاب ارسطو حول «نظام الاثنيين»

ثم في ١٩٢٥ اصدر « قادة الفكر » وهو مجموعة دراسات عن المشاهير من فلاسفة ومفكرين وشعراء اغريق ورومان . وبعد اربعة عشر عاما عاد الى هذه الينابيع من الثقافة القديمة عندما نشر عام ١٩٢٩ : « من الادب التمثيلي اليوناني : سوفوكليس » .

وموقع استقطابي ثالث في عالم طه حسين الفكري هو موضع الدراسات المتعلقة بنشأة الاسلام وتطور الدولة الاسلامية في عصورها الاولى خاصة .

وبدأت السلسلة بقصة « على هامش السيرة » الصادرة تيانا في مجلد اول عام ١٩٢٣ ثم في مجلد ثان بعد تسع وعشر سنوات ثم كان « الخلفاء الراشدون » عام ١٩٤٧ ، ثم الفتنة الكبرى في مجلدين : اولهما عام ١٩٥٣ وثانيهما عام ١٩٦٠ .

وقبل ذلك صدرت مجموعة القصص الاسلامية عام ١٩٥٠ تحت اسم « الوعد الحق » و« اخيرا « مرآة الاسلام » عام ١٩٥٩ .

ومن اواقف الاستقطابية الاخرى نذكر دراساته وترجماته ومحاولاته للتعريف بالاداب العالمية وخاصة بروائع الادب الفرنسي ، التي نشرها على فترات متباعدة ، وكذلك آثاره التي تحكي ذكرياته عن وقائع حياته، ومنها « الايام » الذي نشر في اجزاء جد متباعدة و « في الصيف » وغيرها .

ونكتفي الان بهذا القدر من مظاهر تردد طه حسين المستمر حول عدد محدود من القضايا الكبرى التي لا ينتهي ايدا شوقه للعودة الي كل منها ، مهما طال به زمن الانصراف عنها .

وسنرى بعد قليل وجود الترابط في عالم طه حسين بين هذه المجالات المتنوعة .

ولنتنقل الى الوجه الثاني من وجوه الوحدة والتناسق والتماسك والاستمرار في عالم طه حسين ، والذي يتعلق بالاتجاه العام لخطي السير في تحركه ، في الميدان الثقافي والادبي من جهة ، وفي الميدان الاجتماعي والسياسي . ومن هذا الباب ، لا يسعنا الا ان نلاحظ ان تاريخ الادب العربي الحديث قلما عرف ادبيا جند مواهب بمثل الحيوية

والمساء والانتعاش التي كانت لطفه حسين لخدمة قضية يمثل هذا الاتصال بقضية شعبه ومجتمعه .

وفي ظني ان الصفة التي دفعت بطفه حسين الى افئدة قرائه هي بقاءه دائما في قلب الساحة التي كانت تتصارع فيها الافكار والافلام حول القضايا اللاهية التي تهم مجتمعه . واهتماؤه الى يتابع الثقافة المالية بمعناها الأشمل والأعمق ، وعمله في الدراسات والتحقيقات والبحوث الادبية الاكاديمية التي تتطلب الهدوء والناة والموضوعية ، وارتقاؤه أعلى المناصب الجامعية والسياسية ، كل ذلك لم يمنع حضوره الدائم على كل الجهات التي كان ينبض فيها قلب وطنه وشعبه ، ولا انساه عادات النزول الى ميادين العراك حول المبادئ والافكار ، حتى اواخر مراحل عمره ، يمثل الاندفاع والحرارة التي كان يقبل فيها على العراك أيام كان طالبا في الأزهر او في الجامعة المصرية .

هذا البذل الدائم الذي كان يسخر به طه حسين فيعطي من نفسه بقدر ما كان يعطي من قلمه ولسانه هو الذي رسخ له هذا الحضور الحي في حياة مجتمعه ، وفي عقول قرائه . وان بقاء طه حسين قريبا دائما من مواضع النبض والتحفز والتفاعل في حياة المجتمع المصري خاصة والمجتمع العربي عامة هو الذي يجعل من أدبه انعكاسا مندوبا وملتبها ليس فقط لمرآحله حياته الفكرية والنفسية ، وانما ايضا لهواجس وأشواق وتطلعات الناس البسطاء واليبرين ، الفقراء والاقبل فقرا ، في بلده . ولئن جاء أدبه شهادة باهرة على التحولات الضخمة التي حدثت في مجتمعه خلال ثلاثة ارباع القرن المنقضية فان حياته الحافلة بالعمل والنشاط كانت احد العوامل الهامة في احداث هذه التحولات .

فهو احد الذين دعوا باكثر ما يكون الالحاح الى ضرورة اععادة النظر في نظم التربية المتبعة في المجتمع المصري بحيث تتلام مع انطلاقة هذا المجتمع في طريق التقدم . وكتابه « مستقبل الثقافة في مصر » الصادر في عام ١٩٢٨ يضع الخطوط العريضة للاصلاح التربوي المنشود على النحو الذي عودنا عليه في دراساته الادبية : تسلسل منطقي ومنهجه صارمة . وهذا الكتاب « مستقبل الثقافة في مصر » يشكل الركيزة لقيده طه حسين السياسية والاجتماعية . وفيه نجد الصورة الواضحة لرؤيته السليمة حول الطريق التي ينبغي اتباعها للنهوض بالشعب المصري الذي كان يعاني من الاحتلال الاجنبي واستبداد القصر والاقطاع ، ومن الفقر والمهانة والجوع وكل مظاهر التخلف . فاكد على ان السبيل الوحيدة للخروج من كل هذا الاوضاع المهيئة تنحصر في ضرورة تحديث التعليم واشاعته الى ابعد الحدود بين كل افراد الشعب ، وفي توحيد مناهج التعليم بصورة تؤدي الى « تكوين الوحدة الوطنية بين المصريين والى تثبيت الديمقراطية وحماية الاستقلال » .

واننا نحس في كثير من صفحات هذا الكتاب الروح الاصلاحية واللهب الثوري الذي كان يلهم واضعي شرعة حقوق الانسان في بداية الثورة الفرنسية . فلنستمع الى طه حسين يقرر بكلمات تتخذ الطابع الرسولي الذي اعتناده من مخططي الانظمة والمذاهب وبنائة النول ومعدني الانعطافات في التاريخ :

« ان الواجب الوطني الصحيح ، بعد ان حققنا الاستقلال واقرنا الديمقراطية انما هو ان نبذل ما نملك من القوة والجهد ومن الوقت والمال لنشعر المصريين افرادا وجماعات ان الله قد خلقهم العزة لا للذلة وللقوة لا للضعف وللسيادة لا للاستكانة ، وللنباهة لا للخصول ، وان نمحو من قلوب المصريين هذا الوهم الشنيع الذي يصور لهم انهم خلقوا من طينة غير طينة الاوربي ونمحو عقولا غير العقول الاوربية ...

« كلا انمسا خلق الناس جميعا ليكونوا سواء في الحقوق والواجبات ولكن الناس يطفي بعضهم على بعض ويجب ان يهدم هذا الطغيان وان نكون نحن هادميهم ...

« ونحن حين نشرع القوانين ونشفي المدارس ونشر العلم وننظم

الاقتصاد ونستعير النظم الديمقراطية من اوربا انما نسعى الى شيء واحد هو تحقيق هذه المساواة التي هي حق طبيعي لابناء الوطن الواحد جميعا .

« يجب ان نمحو من انفسنا ان في الارض شعوبا قد خلقت لتسودنا . ويجب ان نمحو من انفسنا ان في الارض شعوبا قد خلقت لتسودها ...

« ولكن السبيل الى نظام المساواة في الحقوق والواجبات ، هذا الذي نريد ان نقره في حياتنا الداخلية وفي حياضنا الخارجية ، هي واحدة فذة ليس لها تعدد وهي : ان نسير سيرة الاوربيين ونسلك طريقهم لتكون لهم اندادا ولتكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها . نحن في حاجة الى قوة الدفاع الوطني ... ونحن في حاجة الى استقلال اقتصادي ... ونحن نريد الاستقلال العلمي والفني والادبي ...

فاذا كنا نريد هذا الاستقلال العقلي والنفسي الذي لا يكون الا بالاستقلال العلمي والادبي والفني ، فنحن نريد وسائله بالطبع ، ووسائله ان نتعلم كما يتعلم الاوربي لنشعر كما يشعر الاوربي ولنحكم كما يحكم الاوربي ثم لنعمل كما يعمل الاوربي ونصرف الحياة كما يصرفها . نريد الحرية الداخلية وقوامها النظام الديمقراطي . ونريد الحرية الخارجية وقوامها الاستقلال الصحيح والقوة التي تحوط هذا الاستقلال .

وسبيل ذلك واحدة لا ثانية لها وهي بناء التعليم على اساس هتيني . وبعد ان يستعرض طه حسين مشاكل التعليم في مصر وخاصة توزيعه بين المدارس الاجنبية والحرية والدينية الى جانب التعليم الرسمي ، وتأكيده على ضرورة اخضاع التعليم في هذه المدارس لاشرف الدولة وملاحظتها الدقيقة والمتصلة ، سميا « لتكوين الوحدة الوطنية وتثبيت الديمقراطية وحماية الاستقلال » ، ينتهي الى المناذاة بضرورة اقرار التعليم الاولي الالزامي فيقول ما نصه :

« ان التعليم الاولي الالزامي ركن اساسي من اركان الحياة الديمقراطية الصحيحة ، بل هو ركن اساسي من اركان الحياة الاجتماعية .

« ان النظام الديمقراطي يجب ان يكفل لابناء الشعب جميعا الحياة والحرية والسلم .

« الدولة الديمقراطية ملزمة ان تنشر التعليم الاولي وتقوم عليه لاغراض عدة : اولها ان هذا التعليم الاولي ايسر وسيلة يجب ان تكون في يد الفرد ليستطيع ان يعيش . والثاني ان هذا التعليم الاولي يجب ان يكون في يد الدولة نفسها لتكوين الوحدة الوطنية واشعار الامة حقها في الوجود المستقل الحر ، والثالث ان هذا التعليم الاولي هو الوسيلة الوحيدة في يد الدولة لتمكين الامة من البقاء والاستمرار لانها بهذا التعليم الاولي تضمن وحدة التراث الوطني الذي ينبغي ان تنقله الاجيال للاجيال .

« واذا كانت الديمقراطية مكلفة ان تضمن للافراد الحرية كما ضمنت لهم الحياة ، فان الحرية لا تستقيم مع الجهل . فالدائمة الصحيحة للحرية انما هي التعليم الذي يشعر الفرد بواجبه وبواجبات نظرائه وحقوقهم .

« واذا كانت الديمقراطية ان تضمن للناس السلم التي تحميهم ان يعدو بعضهم على بعض داخل حدودهم الجغرافية ، والتي تحميهم من ان يعدو عليهم الاجنبي ، فان هذه السلم محتاجة الى مادة توجد لها واداة تحققها . والمواطنون الاحرار وحدهم هم القادون على ايجاد هذه السلم . هم مادتها وهم ادواتها ...

« ولن نستطيع الديمقراطية ان تكفل للناس حياة ولا حرية ولا سلما الا اذا كفلت لهم تعليما يتيح لهم الحياة ويبيع لهم الحرية ويمكنهم من السلم » .

وانشاؤه آلاف الفصول للتلامذة ، وتحويله عددا هائلا من المدارس
الاولية الى مدارس ابتدائية ، فساعد على تحقيق قسم من مخططه
النظري الذي طرحه ، وعلى الترجمة العملية لشعاره ان التعليم ضروري
للناس ضرورة الهواء والماء .

هذا الجانب من نضال طه حسين ، في الميدان الفكري ، وفي
الميدان العملي ، على السواء ، يمثل اندماج الفكرة بالفعل ، وعدم
انفصال الرؤية الذهنية من التحرك الاجتماعي الفاعل لاحداث التغيير
الاساسي .

وهذا الجانب يعرنا الى حقيقة ثابتة اخرى تميز فكر طه وأدبه .
وهي ان البعد الاجتماعي وما تضمنه من ارادة في احداث التغيير في
المجتمع ، لم يقب ابدا من خاطر طه حسين ، فانعكس دائما في مسلكه
وفي كتاباته .

فتحن حين نعمن النظر ، نجد ان في مؤلفات طه حسين ، دون
استثناء ، تكن دائما فكرة محاولة التأثير في مجتمعه بحيث يساند في
نقله من حالة التخلف الى حالة التقدم ومن حالة الذل والاستكانة
والخمول والجهل والاستبداد والظلم الاجتماعي والحمود الى حالة
الغزة والكرامة والنباهة والعلم ، والمساواة والحرية الاجتماعية
والازدهار الاقتصادي .

وحتى المؤلفات التي تبدو مفرقة في البحث الاكاديمي الصرف لا
تخلو من هذا الاتجاه الصريح او الخفي لفتح اعين مواطنيه على حقائق
الايضاح المختلة في نظامهم السياسي والاجتماعي والفكري ، وذلك اما
بالكشف عن مواضع هذا الخلل ، واما بالتحريف بانظمة افضل تحققت
في عهود مضت او في مجتمعات حديثة غير المجتمع المصري .

فهو في دراسات الاولى لتاريخ الفكر اليوناني
تحت العناوين : « قادة الفكر » و « نظام الاثينيين » يحاول
ان يعرف القراء العرب من جهة بدايات تحرك العقل الانساني
في دراسة المجتمعات البشرية ، ومن جهة اخرى الاشارة الى ان النظام
الديموقراطي ، كما كان الحال في اثينا القديمة يؤمن بالازدهار والحرية
للأفراد والجماعة . او لم يصرح طه حسين في مقدمته لكتاب « نظام
الاثينيين » تبريرا للموقف الموضوعي الذي وقفه ارستو من بحث قضية
السرقة .

« فكل ما وصلنا اليه بعد عشرين قرنا ، انما هو ازالة السرق
الشخصي ان كنا قد وصلنا الى ذلك - فاما الرق الاجتماعي فما زال
قائما موجودا ، والاستعمار اوضح مثال له واقوى دليل . ولسنا نريد
ان نعرض لاستعباد الطبقات بعضها بعضا . وان كان هذا الاستعباد
صورا من صور الرق » .

واما رسالتاه (« ذكرى ابي العلاء » المقدمة لنيل
الدكتوراه من الجامعة المصرية) و « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية »
المقدمة لنيل الدكتوراه من السوربون فيمثلان بدايات
تمرسه بالبحث العلمي المنظم وبالاخذ بأساليب المنهجية الفكرية فسي
دراسات التاريخ الادبي والفكري والتاريخ السياسي ، التي اصبح
الداعية الاول لها والمبدع الاول لصورتها المطبقة في الفكر العربي
الحديث .

وقد جاء كتابه الشهير « في الشعر الجاهلي » ، الذي احدث ضجة
هائلة في الاوساط الدنيوية والرجعية امتدت حتى قبة البرلمان المصري
وحتى عتبات المحاكم المصرية ، يوسي دعائم هذه المنهجية في معالجة الشؤون
الثقافية قيده الى اعتماد الموضوعية والحرية الفكرية والروح النقدية

اننا نلمس عبر هذه الكلمات المنسقة في تسلسل منطقي مذهل ،
اهتداء طه حسين الى رؤية ملهمة للسبيل الاساسية الكفيلة بدفع مصر
الى المستوى الذي يؤهلها لنيل الاستقلال الحقيقي الا وهي وضع
التعليم في متناول جميع ابناء الشعب ورفع مستوى التعليم في جميع
مراحلها ، بحيث يقف المصريون على قدم المساواة مع ابناء الشعوب المتقدمة ،
والاوروبية ، بصورة اخص ، فيكونون لهم اندادا وشركاء في الحضارة ؟

هذا الهاجس ، المتمثل في تصور ضرورة وضع المصري على قدم
المساواة مع الاوروبي هو الذي كان يأخذ على طه حسين تفكيره ويملي عليه
الكثير من التصرفات في ادبه وفي حياته .

هذا الهاجس لم يكن نوعا من النداء او التبعج ، بل انسياقا مع
شعور بالكبرياء القوية من جهة ، ووجها من وجوه ايمانه بالمبادئ
الديموقراطية التي استلهمها من المفكرين الانسيكلوبيديين الذين مهدوا
لثورة الفرنسية ومن دراساته لتاريخ الديموقراطية في اليونان وفي
روما الجمهورية .

وهذا الهاجس كان وراء تأكيده الدائم في الكثير من كتاباته
وترجماته العديدة على ضرورة الذهاب الى الحضارتين اليونانية
واللاتينية في سبيل الاغتراف من هذه الينابيع الثقافية التي صدرت
عنها الحضارة الاوروبية ، واستلهمت منها ، وخاصة من فلسفة ارستو ،
الفلسفة العقلانية والتفكير العلمي المنظم .

وهذا الهاجس كان أيضا احد دوافع طه حسين للاكتثار من تعريف
القراء العرب بكل ما يتعلق بالاداب الاوروبية الحديثة ، وذلك بواسطة
الترجمات العديدة لكثير من الآثار الفكرية والادبية ، وبواسطة الدراسات
النقدية لكثير مما ينشر من شعر وروايات ومسرحيات في اوربا .

فهذا العمل الدائب الذي سعى اليه طه حسين في سبيل ايصال
القاريء العربي ، على اوسع مدى ممكن ، الى الوان من الفكر والادب
العالميين الرفيعين ، والى بعض الاصول في الفكر والادب اليوناني
واللاتيني كان يهدف الى رفع ذوق القاريء العربي وتفتيح حواسه على
آفاق اوسع وأرحب .

ومن هذا القبيل كانت ثورته العارمة على طريقة التعليم التي
كانت متبعة في الازهر وفي المدارس التي كانت تابعة له ، ودعوته الى
ارساء التعليم في مصر على قواعد حديثة مأخوذة من الحضارة الاوروبية
المتقدمة .

فطه حسين ، اثناء دراسته ، في فرنسا ، وخلال تأملاته اللاحقة ،
لمس اسرار القوة الكامنة في الحضارة الاوروبية واسباب سيطرة الغربيين
على الشعوب المتخلفة ومنها الشعب المصري ، فوجد ان جوهر هذه
الحضارة يقوم على العلم المشاع لاكثر افراد الشعب ، وان هذا العلم
هو الضمانة للديموقراطية ولضاميتها : الحرية والحياة والسلم ، أي
الحرية والعمل لكسب العيش ، والامن الداخلي والخارجي .

لذلك سعى بكل ما ملكت فواه ان يدعو المصريين لامتلاك هذه
العدة التي تقوم في اساس قوة اوربا : أي العلم المكتسب بالوسائل
الحديثة والطرق الحديثة ، في سبيل تعمير الاستقلال الناشيء ، بعد
معاهدة ١٩٣٦ ، وفي سبيل جعل مصر أهلا لهذا الاستقلال .

ونعتقد ان ذروة نضال طه حسين في سبيل رفع شعبه السى
المستوى الذي اراده له والذي لم يكن ليريد له ان يكون ادنى من
مستوى الشعوب الاوروبية المتقدمة كان قراره عام ١٩٥١ يوم كان وزيرا
للمعارف في الوزارة الوفدية ، مجانية التعليم الثانوي والتعليم الفني

الخالصة والشك في مواجهة النصوص والاستناد الى التمهيس والتدقيق العقلاني المنظم ازاء الاحداث والاحبار المتوارثة ، لاطراح ما لا يتفق مع المنطق والعقل ، وهو نفسه يقول بالحرف الواحد (ص ٦٢) مظهرا خطورة المذهب الذي جاء للتبشير به :

« والنتائج اللازمة لهذا المذهب الذي يذهبه المجددون عظيمه جليلة الخطر ، فهي الى الثورة الادبية اقرب منها الى اي شيء آخر . وحسبك انهم يشكون فيما كان الناس يرونه يقينا . وقد يجنون ما اجمع الناس على انه حق . وليس خطر هذا المذهب منتها عند هذا الحد ، بل هو يجاوزه الى حدود اخرى ابعد منه مدى واعظم انرا . فهم قد ينتهون الى تغيير التاريخ او ما اتفق الناس على انه تاريخ ، وهم ينتهون الى الشك في اشياء لم يكن يباح الشك فيها » (١).

وهو فوق هذا نناذي بان الادب ليس شيئا مستغلا بما قبله وما بعده بل انه ثمرة من ثمرات العصر والبيئة والاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والفكرية .

هذه المحاولة من طه حسين لعرض كل الافكار الجاهزة حول التراث الفكري والديني والسياسي على محك الاختيار العقلي والشك المنهجي ولتزويد البحث الادبي بنظرية اجتماعية متكاملة هي التي اثارت مخاوف الفئات الرجعية في مصر وحاولت تاليب البرلمان المصري والقضاء المصري والجماهير الشعبية على هذا الاديب الذي لم يكن يتستر في اعلان ثورته ، عبر هذه الدراسات الاكاديمية الصرف ، على كل الاساليب البالية في التدريس وفي التفكير وفي صياغة المناشئة المصرية .

وهذه النظرة الاجتماعية والمنهجية العقلانية اللتين اعتمدهما في كل كتاباته اللاحقة ان في حقل الدراسات الادبية والتخطيط التربوي او في ميدان التحقيقات في التاريخ الاسلامي كانتا في حقيقة الامر ، العدة الاساسية التي استخدمهما في نسف النظام الفكري الموروث الذي كان في نظر طه حسين ، المسؤول عن حالة التخلف في المجتمع المصري والمجتمعات الاسلامية .

قطه حسين ، في كل كتاباته التي يسبو فيها حرصه على وضع نظرية فكرية لا يقب على باله ابداء الدور الذي يلعبه المفكرون في التهديد للثورات السياسية . وقد ظلت صور الانسيكولوبيديين الفرنسيين ، من روسو الى مونتسكيو الى فولتير وديدرو ماثلة دائما امام عينيه . ليس هو الذي كتب في رده على الذين كانوا يتعون على الادب المصري تخلفه عن مجازاة ثورة ١٩٥٢ في بدايات حياتها :

« ويزعمون ان ادب الثورة لم يوجد بعد ، مع ان الثورة قد شبت منذ اكثر من عام والذين يقولون هذا الكلام ينسبون او يجهلون ان الادب يمهّد للثورة وينشئها ويشب جنونها في النفوس بما يلقي في قلوب الناس من الآراء الجديدة وبما يصور لعقولهم من القيم المستحدثة ، وحين ينقل اواقفهم من طور الى طور وحين يفيض اليهم القديم من اوضاعهم الاجتماعية ويدفعهم الى تغيير الاوضاع انما الادباء قوم يحلمون ، والثورة تعبير وتفسير لاحلامهم » (٢).

وارادة التغيير السياسي ، عبر تصور الاوضاع البغيضة في المجتمع المصري تتجلى بصورة واضحة في الصورة الحالكة التي اعطاها طه حسين لبعض قطاعات محددة من هذا المجتمع . وان اللوحات التي رسمها طه حسين ، للمجتمع الريفي المصري الذي عرفه من قرب في اواخر القرن الماضي وفي بدايات هذا القرن ، والتي عبر عنها

(١) طه حسين : في الادب الجاهلي - الطبعة الثالثة . القاهرة - ١٩٢٢ - ص ٦٢

(٢) طه حسين : خصام ونقد - دارالعلم للملايين - بيروت - الطبعة الثالثة ١٩٦٢ ص ٢٨ .

بصورة مؤثرة وملهله ، هي واقفيتها ، ودقتها التي تذكرنا باجمل مما كتبه جوركي عن روسيا القيصرية ، تشكل اتهاما خطيرا للنظام السياسي والديني والاجتماعي الذي كان سائدا في مصر . والصور الملاحقة عن فساد طرق التعليم الديني ، وعن جو الخرافات التي كان يشيعها القيمون على هذا التعليم في نفوس الناس ، وعن جو الفقر المدقع الذي كانت تتخبط فيه غالبية الناس في الريف وفي المدينة ، تشكل النسيج الاساسي للجزأين الاولين من « كتاب الايام » . فهذان الجزوان لم يكونا فقط تعبيراً عن سيرة طه حسين الصبي الملقى دون عناية بين يدي سيدنا وعريفه (اي معلم الكتاب ونائبه) والوالده الشيخ نصف المتعلم ، وامه المهققة باعباء تربية اولادها الثلاثة عشر ، ثم الطالب اليافع في القاهرة المتنقل بين غرفته الحقيرة في الربع بحي كفر الطماعين وحلقات التدريس في صحن الجامع الازهر والمساجد التابعة له ، وانما كان ، في الوقت نفسه ، تسجيلاً حياً لسيرة كل هذه البيئة الفقيرة الى حدود مخيفة ، والساذجة الى حدود مذهلة ، والتي كان يستغل فيها سذاجة الناس الطيبين المتاجرون بالمقائد الدينية من امثال مشايخ الطرق الصوفية ، والتي كان الجهاز العتيق من رجال الدين وتفسيراتهم الخاطئة لتاريخ الاسلام ، يبقي الناس فيها في حالة خمول واذعان لمصيرهم القاتم .

ولكن نبرة طه حسين في سيره نحو فضح الاوضاع المهينة في المجتمع المتخلف الذي لم يترك مناسبة لتأكيد تعاطفه معه وارتباطه به بوشائج لا تنفصم ، لا تلبث ان تعلق في مجموعة قصصه القصصية « المعتذرون في الارض » حيث يصور بالوان مأساوية بالغة القسوة ما يمكن ان يصيب حياة الناس من مآسي الانسحاق النفسي والجسدي بفعل سيادة الافات التي كانت تنخر المجتمع المصري : الجهل والفقر وتعدد الزوجات ، والابوة . ونورد هنا ، فقرتين من هذا الكتاب تمثلان مدى اقتراب طه حسين من جراحات شعبه ، ومدى ما كانت تشيره في اعماق اعماقه من اسى وثورة .

وهاتان الفقرتان مأخوذتان من الفصل السابع الذي وضع تحت عنوان ذي دلالة : « خطر » :

« لست ابغض شيئا كما ابغض الفاء الدروس في الوعظ والارشاد وتنبية القافلين وايقاف النائمين وتحذير الذين لا يفهم فيهم التحذير ولا النذير . وانا مع ذلك مضطر الى هذا اشد الاضطرار . اراه واجبا تفرضه الوطنية الصادقة وتفرضه الكرامة الانسانية . ويفرضه الحرص على الا تتعرض مصر للاخطار العنيفة قبل ابانها ، وعلى ان يسلك هذا الوطن البناس طريقه الى التطور في اناة ورفق وهدوء لا تعصف به العواصف ولا يجري عليه ما جرى على بعض الامم من هذه الثورات التي لا تبقي على شيء . وفي مكان ابعد ، هو يقول :

« واذن فليصبر (هذا الموظف الذي يعجز عن ان يجد في مرتبه الضئيل ما يرضي اسر ما تحتاج اليه اسرته لتعيش) . ولكن الصبر لا يطعم الجائع ولا يكسو العاري ، ولا يسكت الصبي الذي يصيح ملتئسا طعامه حين يعرضه الجوع . ولا يداوي المريض ولا يغني عن الذين انتهوا الى الدرك الاسفل من الحرمان شيئا .

« وليس من الممكن ان تحل مشكلات هؤلاء الناس بالتصدق والاحسان . فان التصديق والاحسان قد يعينان على تفريغ ازمة عارضة وعلى اطعام العيال يوما او اياما ، وعلى كسوة العيال في فصل من الفصول ، ولكنهما لن يستطيعا ان يكفلا لهؤلاء الناس حياة يامنون فيها من البؤس والجوع . واطنك توافقني على اننا بين اثنتين : اما ان نترك الامور تجري

على سجيته فيكون ما لا بد ان يكون ويجري علينا ما جرى على الامم من قبلنا ، واما ان نستقبل من امرنا ما استبدبر وان نحاول الاصلاح

طه حسين : الوحدة في التنوع

تابع المنشور على الصفحة - ٨ -

لنصمم موظفي الدولة من طلب الصدقة والتماس الاحسان ، فنصمم الشعب كله من طلب الصدقة والتماس الاحسان . وليس الى ذلك الا سبيل واحدة ، هي ان نعيد النظر في نظامنا الاجتماعي كله . وليس الى الإصلاح الاجتماعي من سبيل الا اذا وجدت الاداة السياسية الصالحة» .

ولكن هذه الرؤية الاجتماعية التي تضع طه حسين دائما في صف ابناء الشعب البسيط الفقير البائس ، على الرغم من ارتفاعه اعلى درجات السلم في مجتمعه ، لازمت طه حسين حتى في دراساته للتاريخ الادبي القديم والتاريخ الاسلامي . فهو في الفصول التي خصصها في مجموعة « حديث الاربعة » يظهر أثر تكس الاموال في ايدي فتيان الارستقراطية القرشية البعده في مكة والمدينة عن مشاكل الحكم والحرب في تهاونها على اللذات والمجون في حياتها ، وفي شعرها .

وفي كتاب « الوعد الحق » نراه ، في تصويره لبعض المشاهد في حياة العرب والمسلمين منذ بداية ظهور الدعوة الاسلامية ، يركز الاضواء على حقيقة ان الصراع بين الدعوة للدين السماوي الجديد وتمسك قريش بدين آباؤها وآلهاها كان يخفي في الواقع صراعا طبيا بين سراة قريش الذين كانوا يجمعون اموالهم من الاتجار مع البلدان المجاورة ومن استغلال موسم الحج وبين ارفائهم الذين استهوتهم دعوة النبي من امثال خباب وبلال وصهيب وياسر بن عامر وزوجته وابنه عامر وما فيها من مبادئ المساواة بين جميع المؤمنين . فلا عجب ان كان هؤلاء الارقاء في طليعة الذين دخلوا في دين الله ، واوائل الذين لاقوا العذاب والشهادة في سبيل الله .

وقد حاول طه حسين جهده في تخليص التاريخ الاسلامي من العادة المتبعة عند كل المؤرخين الذين لم يروا في هذا التاريخ غير وجوه الخلفاء والملوك والامراء وابناء العائلات الكبيرة ، والذين لم ينفكوا يظهرون النبي بمظهر الفرد الذي كان ابن اعز بيوتات العرب . فجاء اولاً في كتابه « في الشعر الجاهلي » يظهر شكه بآثار الروايات حول الانساب التي تعزى لمختلف القبائل العربية قبل الاسلام وحول حالات الامجاد التي كانت تحيط بكل الرومات التي تحدر منها النبي واهله .

وفي كتابه « على هامش السيرة » يجرد جد الرسول عبد المطلب من الكثير من دلائل السؤدد والمنعة والقوة المادية التي كان المؤرخون يصفونها عليه ، فحاول ان يظهره بصورة الانسان الذي لم يكن له من قوة غير قوة الايمان و ارادة الخير ، اي القوة الروحية . وهو بذلك ينزع عن الدعوة الاسلامية الكثير مما علق بها من التفسيرات التي كانت تعزو بداية نجاحها الى منعة الرسول وحصانته في بني قومه

استنادا الى قوة بني هاشم المادية والعديدية . وكان يبطه حسين في كل هذه المحاولات يسمى لتقريب الرسول الى مستوى الانسان العادي في نشأته ومولده ، تماما مثلما كان غيره من الرسل ، تاركا للقوة الروحية الكامنة في جوهر الدعوة الدينية كل الاسباب لانتشارها وغلبتها . ونرى في هذه النظرة التي تحاول « انسنة » نشأة الرسول واصفاء الطابع الشعبي على وضعه الاجتماعي ، ما يعطي الدعوة الاسلامية كسبا اكبر من المنادة بان الهادي المصطفى كان من بيت هو اشرف بيوتات قريش وان قريش هي اعز مضر وان مضر هي اقوى العدنانية وان العدنانية هي ارفع العرب .

وفي موسوعته الاسلامية ، في الجزء المخصص للخليفين ابي بكر وعمر ثم للفتنة الكبرى نلمس عند طه حسين هذا الحرص على اظهار هذا الجانب النير من بداية الحكم الاسلامي الذي يتمثل في نوع من الاشتراكية والديمقراطية النظرين القائمتين على التقوى والايمان ،

ولكن ايضا وخاصة على العدالة وعلى المساواة بين المواطنين دون نظر للعصبة او للمولد او للنشأة او للعرق او اللون .

وفي كتابات متفرقة لاحقة ، القى الضوء على بعض الحركات الثورية في الاسلام ، مثل ثورة الزنج ، وحركة القرامطة ، وهسي حركات تمثل انتفاضات الطبقات المحرومة ضد نظام اللامساواة والظلم الاجتماعيين ؟

وانه لا يسعنا ، نحن الذين نسمع دائما من يطلق على طه حسين صورة المفكر الجورجوازي ، المنطلق دائما من القواعد الليبرالية ، الا ان ندهش لاصراة المستنر على النباش ، بصور مختلفة ، عن هذه الاشكال المتنوعة للصراعات الطبقة ان داخل المجتمع المصري او داخل المجتمعات المختلفة في تعاقب عصور التاريخ الاسلامي . وهو ، من هذه الناحية ، يختلف عن الكثيرين من معاصريه من كتّاب ومفكرين من امثال محمد حسين هيكل واحمد لطفي السيد .

ولكنه رغم كل هذا التأكيد على فضح الفقر ورغم ثورته على كل مظاهر اللامساواة والظلم الاجتماعي ، يظل في الخط الليبرالي لانه لا يهتم الا بقضايا عدم المساواة في توزيع خيرات المجتمع وفسي املاك المنتجات الاستهلاكية ، ولكنه لا يعالج بشيء قضية عدم المساواة في امتلاك أدوات الإنتاج . فهو اذن يظل بعيدا عن النظرة الاشتراكية الحقيقية .

ولنات الآن الى الوجه الثالث من وجوه الوحدة والتماسك في شخصية طه حسين ، وهو الوجه المتصل بمنهجه العام في تناول القضايا التي شغل نفسه بها والمواضيع المتنوعة والمربطة فيما بينها بالرمي الهادف دائما لتوعية ابناء مجتمعه .

لقد اشرنا قبلا ، كما اشار كثيرون من الباحثين قبلنا ، الى المنهج الفكري عند طه حسين ، وقلنا انه محاولة لاستخدام الشك طريقا لليقين ولتحكيم العقل والمنطق في مواجهة الافكار التوارثة . ويعترف طه حسين ان هذا المنهج العقلاني قد تانى له من انصاله بالمفكرين الفرنسيين ، وخاصة ديكارت وأوغست كونت في الفلسفة وسينيويوس في التاريخ ، واميل دوركهايم في علم الاجتماع ، وسانت بوف وتين وبرونيتيير في النقد الادبي ، وكذلك من استخدامه لبعض ومضات في آثار المفكرين المسلمين وخاصة ابن سلام و ابي العلاء المعري وابن خلدون ، ومن استخدامه العلوم الاسلامية وخاصة علم الحديث وطريقة « التعديل والتجريح » المعتمدة لقبلة الاحاديث الروية .

وهذا المنهج قد اعتمده طه حسين ، بصورة منظمة ، في دراساته الاساسية للتاريخ السياسي والديني والفكري والادبي في الجاهلية والاسلام .

وقد ظل هذا المنهج العقلاني رائده في معالجة الكثير من القضايا الاجتماعية والادبية التي كانت تشغل بال معاصريه .

ولكن يقتضينا الانصاف ان نقول ان طه حسين قد فقد مع الايام الكثير من حماسه وحدته في المنادة بضرورة تحكيم العقل وفي اللجوء الى الشك باكثر ما في التراث المتناقل . فهو في دراساته وافاصيله حول نشأة الاسلام والحياسة الاسلامية و « الخلفاء الراشدين » و « الفتنة الكبرى » و « الوعد الحق » و « مرآة الاسلام » و « على هامش السيرة » لا يحقق في الروايات والافاصيل التي اوردها المؤرخون والرواة عن العصر الاسلامي الاول واواخر الجاهلية ، بالشدة والصراحة اللتين اظهرهما في كتابيه « حديث الاربعة » و « في الادب الجاهلي » او في رسالتيه « ذكرى ابي العلاء » و « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » ، وهي الآثار التي اصدرها في مطلع شبابه وجعلت منه ، لكثرة ما دعا فيها الى الشك ، واعادة النظر بالتراث ، الفتى الرهيب في الادب العربي . فهو في دراساته التي صدرت في ايام نضجه ، يكاد يسلم بصدق اكثر الروايات المتناقلة

في كتب التاريخ ، وخاصة حول ما يتعلق بالرسول وصحابته والخلفاء الراشدين . وهو ينطلق من هذه الروايات لينسج ما ابتدئته مخيلته من قصص حول بعض الاحداث والاشخاص والمجزات .

ونحب أن نلفت النظر الى انه لا ينبغي الاعتقاد ان بالامكان وضع صورة طه حسين في هذا الاطار الواحد المفرد أي الاطار البالغ الجدية والصرامة والاغراق في القوص على النصوص القديمة أو الحديثية والالتصاق بها في عمليتي التسليم بها أو رفضها . فطه حسين أعطانا الامثلة العديدة في مذكراته وفي قصصه ومحاولاته الادبية المتنوعة على قدرة فائقة على الابتعاد عن النصوص الجاهزة والصور المتشابهة للاحداث والاشياء والناس وعلى ابتداع أجواء وشخصيات ووجوه ، وتخييل علاقات في حياة الناس ليست دائما من صنع الآخرين ، ولا من صنع الواقع ، وانما من صنع مخيلته الواسعة . وهذا الامر يظهر بوضوح خاصة في مجهوعته « المذبذبون في الارض » وحتى في « الايام » ، في جزائه الاولين خاصة . فالوجوه والطباع التي صورها صورة واقعية أخاذة في هذه القصص التي تبدو ضربا من المذكرات وأصداء السيرة الشخصية والتي تبدو مقتلعة من واقع البيئة التي عاش فيها ، في وسطه الريفي في طفولته ، أو في حي كفر الطماعين أثناء دراسته في الأزهر ، ليست كلها ، في ظني ، وجوها كاملة لاشخاص حقيقيين ، وانما وجوها ابتدئها خياله انطلاقا من بعض انطباعات ونجات علفت في ذاكرته من اتصاله ببعض الناس والاحداث في المراحل التي قضاها في تلك البيئة . لقد كانت وجوها عمل في خلقها التأليف والتصور والتخييل والاستلهم من الواقع أكثر مما عمل النقل الاعمى عن الواقع .

وكذلك الوجوه التاريخية التي صورها في « الوعد الحق » وفي « على هامش السيرة » للناس الذين بث فيهم الحياة الدافقة وجعلهم يتحركون ويحركون اللوحات الهيبة التي حاول عبرها بعث الحياة التي كان عليها المجتمع العربي في أواخر الجاهلية وصعد الإسلام ، انها تبدو مقتلعة من واقع معاش ، لفرط ما يكسوها مسن لحم ودم وما تتصف به من نبض حي . ولكن القليل من الوقائع التي أعطتها نصوص الروايات والسير والاساطير المنقولة لم يكن إلا النواة التي نسج طه حسين حولها ، بقدرة تخيلية مدهشة ، أبنية انسانية تأخذنا بغناها وزخارفها ونضارتها وشبه واقعيته . وبالطبع لا يغلو طه حسين من التأثر ، في هذا الميدان ، بالكتاب الغربيين الذين تناولوا في مسرحياتهم أو قصائدهم الطويلة ، أو رواياتهم ، تاريخ المسيحية الاولى .

والذي نود ان نظهره هنا ان طه حسين لم يكتف بالاعتماد على العقل والشك ، في تحركه الادبي ، وانما استعان ايضا ، كما دعت الحاجة ، بملكة الخيال المجتج والانفعال الشعوري الحار ويزخم الايمان واليقين ، عندما حاول في كتاباته الهادفة لاعطاء أشكال حديثية لتصور الدين الإسلامي وفهمه ، التوفيق بين متطلبات العقل النازع الى الشك ومتطلبات القلب والروح النازعين الى طمأنينة اليقين ونعمة الايمان .

وهذه المحاولة التوفيقية ، التي بدأت عنده مع بداية دخوله في الأربعين من عمره ، وتولت فورة الشباب فيه ، هي في نظرنا انعكاس لحالة التوازن الذي انتهى اليه فكره ، حين أخذت تلقى في عملية تقارب وتلاقي وانسجام ، مؤثرات ثقافته الإسلامية المؤدية الى الايمان بالثروات الدينية والروحي الإسلامي ، ومؤثرات ثقافته الغربية الداعية أكثر الى الرفض والشك .

هذا التعاقب في عمليتي الرفض والشك في بداية حياته الادبية ثم الايمان واليقين المعلنين في مراحل النضج ، هو اذن وجه من وجوه محاولات التوحيد والتوازن والتماسك في نزعات نفسه المصلوبة على

دروب ثقافته المتعددة النشأة .

ولنات ، بعد هذه اللغات الى المضمسون واتجاهه ، في أدب طه حسين وفكره ، الى الوجه الشكلي في هذه الوحدة التي حاولنا تلمس ظلالها الخلفية في تعدد نشاطاته ، أي الوجه المتعلق بأسلوب طه حسين في صياغة أفكاره وأحاسيسه .

وغني عن البيان ان لطه حسين أسلوبا بيانيا مميزا وفريدا في الأدب العربي الحديث ، والمجال هنا لا يتسع للاسهاب في تحليل عناصر هذا الاسلوب وتحديده وتقييمه . ولكننا نكتفي ، في هذا الباب ، بالقدر اللازم لتوضيح فكرتنا حول ترابط أدب طه حسين وتفردته وتجانسه الموحد ولإعطاء المرتكز اللازم لما سنورده في عرض الوجوه الوحدوية عند هذا الاديب .

أول ما يلفت النظر ، عند قراءة أي اثر من آثار طه حسين ، هو هذا اللجوء المستمر الى الجملة الطويلة غالبا ، ذات البناء المناسق ، المتوازن ، والذي تنكس فيه المرادفات ، وتتقابل الصور المتعكسة بمدلولاتها مما يؤدي الى تألف في محصل البناء الذهني والى تناسم لفظي وجرس موسيقي خاص نابع من هذا التوازن والتناسق بين مصاريع الجملة ، أولا ، ومن اختيار المرادفات الأكثر ليونة وسهولة على اللفظ والسمع ، نانيا . وهذا الاسلوب يصل الى ذروته في « على هامش السيرة » وفي « الجزاين الاولين من « الايام » ، و « في الصيف » . وهما مثلا عن هذا النسق في الاسلوب ناخذة من احدى صفحات « الايام » :

« كانت تلك الغبلات نعشى قلبه وتسيح في نفسه أمنا وأملا وحنانا ، وكان ذلك النسيم الذي كان يلقاه في صحن الأزهر يشيع في نفسه هذا كله ويرده الى الراحة بعد التعب ، والى الهدوء بعد الاضطراب ، والى الابتسام بعد العبوس . ومع ذلك فلم يكن يعلم من امر الأزهر شيئا ، ولم يكن يعرف مما يحتويه الأزهر شيئا ، وانما كان يكفيه ان تمس قدميه الحافيتين أرض هذا الصحن ، وان يمسه وجهه نسيم هذا الصحن ، وان يحس الأزهر من حوله نائما يريد ان يستيقظ ، وهادئا يريد ان ينشط ليعود الى نفسه او لتعود اليه نفسه . واذا هو يضمر أنه في وطنه وبين اهله ، لا يحس غربة ولا يجد أمنا وانما هي نفسه تتفتح من جميع أنحاء وقلبه يتشوق من جميع أقطاره ليتلقى شيئا لم يكن يعرفه ولكنه كان يحبه ويدفع اليه دفعا .. وهو العلم » (1) .

أترون الى هذه الجملة الطويلة ، التي يحاول الكاتب فيها ان يزيد في ترسيخ الصور والاحاسيس التي يعبر عنها في ذهن القارئ بجعل الالوان الدقيقة للفكرة الواحدة تتلاحق وتنهزم اما بصورة مفردات مترادفة بمعناها ، او بصورة اجزاء من جملة قريبة بمدلولاتها ، كما في قوله : « وترده الى الراحة بعد التعب والى الهدوء بعد الاضطراب والى الابتسام بعد العبوس » أو في قوله : « وانما كان يكفيه .. ان يحس الأزهر من حوله نائما يريد ان يستيقظ ، وهادئا يريد ان ينشط ، ليعود الى نفسه ، او لتعود اليه نفسه » . أو في قوله : « وانما هي نفسه تتفتح في جميع أنحاء وقلبه يتشوق في جميع أقطاره » . كل هذه الوسائل التي تبدو للبعض نوعا من التكرار الملل ، تشكل المفتاح للوضوح والاشراق اللذين يميزان كسل كتابات طه حسين ، والرغبة الملحة دائما لا يصل ما يريد ايصاله الى القارئ بأقصى ما يكون من الدقة والنفاذ والفعالية .

ولنتنقل الى الجانب الاخير من هذه الوحدة في التنوع عند طه حسين ، ونعني به الجانب المتعلق بالمؤثرات التي عملت في تكوين

(1) طه حسين : الايام - الجزء الثاني - ص ١٦٩ - دار الكتاب اللبناني - بيروت .

ذهن طه حسين وعقله وفكره وحساسيته والتي تشكل المنطلق لتفسير أكثر الظواهر التي رأيناها في مسلك طه حسين واتجاهه ومضامين فكره وأسلوب أدبه .

يمكننا تلخيص هذه المؤثرات بما يلي :

١ - المؤثرات البيولوجية ، ونعني بها مجموعة المواهب والمدارك التي وهبتها الطبيعة لطفه حسين والعوائق الجسدية التي كان مسن شأنها ان تمنع تفتح هذه المواهب والمدارك .

٢ - المؤثرات الاجتماعية ، ونعني بها مختلف عوامل البيئة الاجتماعية والسياسية التي أحاطت بمختلف مراحل حياة طه حسين .

٣ - المؤثرات الفكرية والثقافية ، ونعني بها كل ألوان الزاد من المعرفة التي أتت لطفه حسين الاتصال بها والاعتراف من يتابعها والتأثر بها والتفاعل معها أثناء مراحل تكونه الذهني ، والنفسي .

وانني اجدني مضطرا لضيق المجال الى أن اصرف النظر عن التدقيق بانعكاسات المؤثرات الاجتماعية والمؤثرات الثقافية على أدب طه حسين ومسلكه .

وأظنني قد أعطيت بعض اللمحات حول هذه الانعكاسات فيما سبق من اقسام هذا البحث . وانني أجيل القارئ الى الدراسات العديدة التي خصصت لطفه حسين وأخص منها بالذكر أبحاث شكري عياد (١) ، وكامل زهيري (٢) ، ومحمود أمين العالم (٣) ، وأحمد زكي (٤) ، ورجاء النقاش (٥) ، وألبرت حوراني (٦) . على كل حال فان طه حسين نفسه في الكثير من كتاباته وخاصة في مقدماته لرسالتيه حول « المعري » و « ابن خلدون » وفي « الايام » يبين بوضوح واسهاب اثر الذين تعاقبوا عليه من أساتذة ، في قرينه اولا ، ثم في الأزهر والجامعة المصرية الناشئة ، وأخيرا في باريس ، وما خلفوه في نفسه من يقظة ورضى أو نفور .

ولنكتف الآن بالحديث عن المؤثرات البيولوجية التي نعتقد أن لها دورا كبيرا في طبع طه حسين الانسان والاديب بطابع لا يمحي .

وهذه المؤثرات نود ان نحصرها في عاملين :

عامل إيجابي : وهو قوة الادراك العقلي الفائقة .

وعامل سلبي : وهو آفة العمى التي ابتلي بها طه حسين منذ الثالثة من عمره .

ونحن ان نسعى لدرس كل من هذين العاملين بصورة مستقلة عن الآخر ، بل سنحاول معالجتهما معا بسبب التفاعل المستمر والتشابك او التداخل المتصل بينهما اولا وبين آثارهما في نفس طه حسين ثانيا .

وأول ما نريد ان نقرره ان طه حسين قد رزق ولا شك بنية عقلية وذهنية مدهشة بقدرتها على استيعاب كل ما يلقي على سمعه وعلى اختزان كل التلقينات الحسية والذهنية في ذاكرة عجيبة لا حدود لقدرتها الاختزانية . وقد حبا الله طه حسين بمقدرة هائلة على تحليل المعلومات التي تلقاها حواسه وعلى تصنيفها في المجاري الذهنية الخاصة التي امتاد اختزانها فيها لحين الحاجة اليها .

وقد وهب الى جانب هذه القوى المهددة للادراك المقدر على التأليف بين هذه المعلومات المتلقاة والربط فيما بينها ودمج ما يلزم منها ، وفرز ما لا يلزم ، لتكوين الافكار والرؤى وتوليد الصور الذهنية التي يخزنها او يدفع بها عبر قلعه او لسانه .

(١) هـ) الهلال : عدد خاص بطه حسين - ١٩٦٦ .

(٦) ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة - ترجمة كريم عزقول عن الانكليزية - بيروت ١٩٦٨ ، دار النهار للنشر .

وكل هذه المدارك والقوى ما كانت لتكفي لتجعل من صاحبنا الاديب الفذ الذي نعلم ، لو لم تزوده العناية والطبيعة بمملكة القدرة على التعبير عن كل ما يضطرب في خاطره ويتلجج في صدره بصورة بديهية رائعة ، بواسطة الكلمة المسموعة ، دون حاجة الى مراجعة أو تصحيح أي .

وكل هذه القوى والمدارك ما كانت لتشيرنا وتسترعي انتباهنا لو لم يصاحبها الجانب الاخر من البنية البيولوجية عند طه حسين ، الا وهو ما يسميه عادة « بالآفة » ، أي آفة العمى .

فلاول وهلة كان من حقنا ان نتصور ان هذه الآفة كانت حرية بان تشكل عائقا يقف في وجه تجلي المدارك التي ذكرنا على الصورة الفريدة التي رأيناها عند طه حسين .

ولكن أصبح من الشائع الاعتقاد ان هذه الآفة ، ان سببت عائقا امام طه حسين وأمام كل أعمى للتعرف على العالم الخارجي من خلال « المحسسات » البصرية ، فانها بالمقابل تعين على اغناء عالمه الداخلي .

فان من المعروف عند العلماء ان المعلومات المباشرة المتلقاة بواسطة حاسة البصر ، عند البصرين ، هي عادة من الغزارة والطفيان والكثافة بحيث تؤدي الى صرف الذهن عن الافادة من هذه المعلومات الحسية في سبيل تحويلها الى مركبات ذهنية ، عن طريق التأليف فيما بينها وربطها في العمليات التي تدخل فيما يسمى بالادراك . اما الاعمى الذي يتقلص عالمه الخارجي الى الحد الأدنى ولا يتلقى من هذا العالم الا ما يأتيه بواسطة حواس السمع والشم والذوق واللمس ، وهي كلها حواس ذات مدى ونطاق ضيقين جدا ، فمحمول بفضل هذه الندرة في ما يتلقاه من معلومات حسية مباشرة ، على ان يتفرغ أكثر من البصر للعمليات التأليفية بين المحسسات والتلقينات بحيث يحولها الى مدركات . فهو في وضع يتيح له الانصراف أكثر الى التأمل والقدرة على استكناه المدركات المتلقاة .

هذه الآفة التي ابتلي بها طه حسين منذ صغره الباكر ، كانت ، اذن ، من هذه الناحية، نعمة عليه . وما نظفه الا انه ، بعد ان بلا آثارها في أدبه وفكره ، قد عرف فضلها أو ، على الأقل ، هو كان أقل سخطا عليها وأقل انسياقا مع التشاؤم والنقمة على الدنيا ، بسببها ، من زميله المعري ، ذلك العبقرى الآخر الذي لم تفارق ذكره ولا اشعاره مخيلة صاحبنا .

وقد كان لآفة العمى آثار بعيدة على طه حسين الاديب والانسان . وأولى هذه الآثار انها عمقت فيه عادة الانصات الى الناس والاشياء لتلقي أكبر قدر ممكن لا من الاصوات فقط بل من التفاريق الدقيقة التي تفصل بينها والتي تميز كل كائن وكل مناخ وكل حضور بصورة لا يلتفت عادة الى مثلها كل البصرين .

ومن هذه العادة للانصات ، عند طه حسين ، التي كانت تشد اذنيه الى ما وراء الجدران كما يقول ، والتي كانت تسمح له بسان يسمع ويرى ليس بأذنيه فحسب بل بكل فلذة وكل صفحة من جلد وجهه ويديه وكافة جسمه ، كان تعلقه بالكثير من التفاصيل والدقائق الفاصلة بين الاشياء والعلاقات والناس ، والتي نرى في كثير من كتاباته الوجدانية ، وخاصة في « الايام » و « على هامش السيرة » و « في الصيف » نماذج جميلة منها .

ومن آثار هذه الآفة حرصه على عدم تعرضه لشماتة او هزء الاخرين ، وفي ما يروي في « الايام » عن تعرضه وهو بعد صبي لهزه اخوته بسبب غلظة ارتكبا في تناول طعامه ، اشارة ذات دلالة :

((من ذلك الوقت تقيدت حركاته بشيء من الرزانة والاشفاق والحياء لا حد لها . ومن ذلك الوقت عرف لنفسه ارادة قوية ... هذه الحادثة اخذته بالوان من الشدة في حيانه جعلته مضرب أمثل في الاسرة وبين الذين عرفوه حين تجاوز حياة الاسرة الى الحياة الاجتماعية ... كان قليل الاكل أمام الآخرين ... ثم حرم على نفسه من الوان اللعب والعيب كل شيء الا ما لا يكلفه عناء ولا يعرضه للضحك او للاشفاق ...))

((وانصراه هذا عن العيب حبيب اليه لونا من الوان اللهو هو الاستماع الى القصص والاحاديث ... ومن هنا تعلم حسن الاستماع)) (١) .

وقد يكون اشفاقه من ان يعرض نفسه لهزم الآخرين هو الذي دفعه للركون الى العلم وللاستزادة ما وسعه من المعرفة . وطلب العلم لم يكن عند طه حسين وسيلة لاغناء نفسه وذاته فحسب ، ولا وسيلة لكسب العيش بصورة كريمة كما كان يطمح له والده عندما ارسله الى الازهر ، وانما كان كذلك سبيلا لشق طريقه الى الموضع الذي يكون فيه على قدم المساواة مع المصريين ، بل في موضع اسمى . وفي ((الايام)) نجد وقائع عديدة اخرى ذات دلالة واضحة ، تؤكد هذا التوق العجيب عند هذا الانسان الذي حرم نعمة البصر ، لتأكيد مكانه تحت الشمس الى جانب المصريين . ومن هذه الوقائع اقدامه عند عودته من الازهر الى القرية ، في اولى اجازاته الصيفية ، على المجاهرة بأداء جريئة حول رفض الاستعانة بالادعية وباخبار الاولياء للتوسل الى الله . وهو يعترف انه ادلى بتلك الآراء التي صدم بها والده الشيخ وكل المشائخ العاملين في الدائرة الريفية المتصلة بقريته ، في سبيل لفت الانظار اليه ، وفرض مهابته على أهله وعلى أبناء المنطقة ، بعد ان لمس لامبالاة من الجميع لدى عودته من الازهر ، وهو بعد صبي لم يتجاوز الثالثة عشرة فاستصغروه . فيقول طه حسين بالحرف الواحد تعقيا على هذه الواقعة :

((وعلى كل حال فقد انتقم الصبي لنفسه ، وخرج من عزلته وشغل الناس في القرية والمدينة بالحديث عنه والتفكير فيه . وتغير مكانه في الاسرة ، مكانه المعنوي ، ان صح التعبير . فلم يهمله أبوه ، ولم تعرض عنه امه واخوته ، ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والاشفاق بل على شيء اكثر وآثر عند الصبي من الرحمة والاشفاق)) .

(١) طه حسين : ((الايام)) - المجلد الاول ، ص ٢٤ - ٢٧ ، دار الكتاب اللبناني .

هذه الحادثة اعطت طه حسين الاختبار الاول للقوة الكامنة في امتلاك هذه الاداة السحرية : العلم والمعرفة . وقد اقبل على امتلاك هذه الاداة بنهم مدبش . ثم اقدم على استخدام هذه الاداة ، ليس في سبيل تأكيد موضعه تحت الشمس ، على قدم المساواة مع المصريين ، انما لتفجير شمس المعرفة في نفوس المصريين ، ولجعل بصيرته مشاعا مع الآخرين . واذا كان لنا ان نختصر طه حسين في كلمة ، لقلنا : انسه الانسان الذي حجبته عنه الطبيعة اضواء الاشياء فكان رده ارتدادا الى اضواء الفكر يفني بها نفسه ويفني الآخرين . طه حسين ظل اذن الباحث عن الضوء ، والساعي لاعطاء الضوء ، حيث مر .

وهذا التوق للاضواء يتجلى قبل كل شيء في صفة المعلم التي كانت احب الصفات الى نفسه والصفها بذاته . فهو في كل كتاباته وفي كل خطبه وتصرفاته لم يتقطع يوما عن اتخاذ هذه الصفة التي كان يجد فيها وسيلة للاتصال بالآخرين لايبصال اضواء المعرفة التي نفوسهم : المعرفة بالتراث القومي ، والمعرفة بتراث الانسانيه . وهذه النزعة لاشاعة الضوء هي التي تتجلى في دياحة طه حسين وفي أسلوبه البالغ الوضوح ، والبالغ الشفافية ، ليكون افعل في ايبصال الفكرة الى نفس قرائه .

وهذه الرغبة في نشر الضوء هي التي تكمن وراء محاولات طه حسين ، عبر كتاباته التي تندرج عادة تحت اسم السيرة الذاتية ، لتعريف ذاته واظهار نفسه وببسته في ما لها وفي ما عليها ، وذلك لاشارة الآخرين في التجارب النفسية والفكرية التي عاناها ، ومحاولة لتجنب ابناء مجتمه الامم التي عاناها بسبب الاوضاع الاجتماعية المختلفة . وهي كذلك وراء محاولته لاحداث التخطيط التربوي الداعي لاشاعة التعليم وجعله ضروريا لضرورة الماء والهواء ، ونضاله في سبيل تحقيق ما أمكن من هذا المخطط .

وبكلمة ، ان هذا السعي وراء الضوء يكاد يكون القاسم المشترك الاساسي بين مختلف الاصعدة التي رايناها في عملية التوحيد والتنسيق بين مختلف اندفاعات ونشاطات طه حسين . ومرة اخرى حسب هذا الاديب ، الذي حرم نعمة الضوء ان يكون مصدر اضواء لا تخبو في عصره ولن تخبو في العصور التي تسلي (٢) .

بيروت

(٢) محاضرة القايت بدعوة من المجلس الثقافي للبنان الجنوبي.

كتب عقائدية وفكرية

من منشورات دار الآداب

الثقافة والثورة	محمود امين العالم	دفاعا عن الثورية	ريجي دوبريه
ماركيوز او فلسفة الطريق المسدود	محمود امين العالم	القوة السوداء	ستوكلي كارمايكل
ادب المقاومة في فلسطين المحتلة	غسان كنفاني	الوحدة العربية آتية	ارنولد توينبي
ها الى الثورة	جيرري روبين	التحدي الصهيوني	جاك دومال - ماري لوروا
النشاط الجنسي وصراع الطبقات	رايوت رايش	جمال عبدالناصر من حصار الفالوجة	» »
الوجه الاخر لامريكا	ميكايل هارنغتون	الارهابيون والعدائيون	رولان غوشيه
حرب المقاومة الشعبية	الجنرال جياب	اقتراح دولة فلسطين	احمد بهاء الدين
قصة المقاومة الفيتنامية	الجنرال جياب	الكواكبي المفكر الثائر	نوربير تايبيرو
الكفاح المسلح	دوغلاس هايد	عاجلا او آجلا ستزول اسرائيل	ترجمة ريمون نشاطي
ثورة في الثورة	ريجي دوبريه		

دار الآداب ص ب ٤١٢٢ بيروت